التعريب والتفتح في المغرب العربي

للدكتور محمود عبد المولى

«تونس»

يتحدث الناس كثيرا ، هذه الايام عن الانفتاح أو التفتح ، حتى غدت هذه الكلمة مبتذلة واصابها ما أصاب بعض العملات ، اثناء الازمات الاقتصادية، من تضخم قد قضى على جزء ضخم من قيمتها الشرائية .

ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان كلمة انفتاح أو تفتح او تعصير ، اصبحت ، في قاموس البعض ، تعلة لاتهام كل من انبرى للدفاع عن حظوظ اللغة والثقافة الوطنية ، بالتحجر والزماتة والانطواء على النفس ...

وبهذه المناسبة ، ونحن نضع بعض ملاحظاتنا حول « جدلية التعريب والتفتح » أو جدلية «الاصالة والتفتح » — نؤكد لادعياء الانفتاح والتفتح والتعصير — دون ذكر اسمائهم — ان كل من يعتز بلغته واصالته الثقافية والقومية بطريقة ، ثورية وموضوعية ، بامكانه ان يستفيد من عملية الاخذ والعطاء مع الحركات الفكرية والعلمية في العالم . وذلك على شرط ان تكون اللغة والاصالة الحضارية والاجتماعية هي الاصل والمنطلق ، لكل عملية تفتح عبر اللغات والحضارات الاجنبية . لذلك لن يتم هذا الاخذ والعطاء الخصب الا في شروط موضوعية معينة منها :

— تحريك قيمنا الحضارية الخالدة — وتراثنا الثوري الحافز ، وربطها بالحركات الفكرية والعلمية المتقدمة في عالم القرن العشرين .

— ان التفتح شطر اللغات الحية والحضارات المتقدمة يجب أن يكون مدروسا — لا متروكا للصدف ، لكي يلعب دوره المكمل الفعال لثقافتنا ولغتنا واصالتنا .. والا انقلب الى خطر ماحق يهدد شخصيتنا وكياننا الاجتماعي والثقافي ، بالمسخ والذبذبة ... كما نرى — لا تناقض بين قيمنا القومية واقيم الاممية في مضمار الاصالة والتفتح . نستطيع أن نأخذ عن الغير العلم والتقنية والثقافة المتقدمة وذلك بتعلم بعض اللغات الاجنبية الحية بدقة واتقان — اذا أمكن — وفي نفس الوقت نتمسك بمقومات شخصيتنا العربية والاسلامية حيث تكون اللغة العربية والفكر الثوري من عناصرها الاساسية، هذا في رأيي هو الانفتاح المنشود . اما الاقتصار فقط على الاخذ من فرنسا وحدها عن طريق لغتها وثقافتها ، فهذا هو التحجر والذوبان معا .

انه التحجر لان فرنسا هي في الواقع تعتبر في خصوص بعض الميادين العلمية والتكنولوجية متخلفة بالنسبة لعدد من البلدان المتقدمة كأمريكا وانجلترا وروسيا والمانيا ... الا انها تعتبر طبعا — متقدمة تقدما مهولا — بالنسبة للبلدان المتخلفة جميعها . اليس من الافضل لبلدان المغرب العربي ان تستفيد من اختصاصات — هي في حاجة اليها — ولا تجدها في فرنسا بل في بلدان اخرى متقدمة ، سواء كانت في الشرق الاشتراكي او الغرب الرأسمالي ..؟ اذا كان الجواب بنعم ، فلا شك أن تعلم لغة من اللغات

الحية كالانجليزية او الروسية او الالمانية ... امر لازم .

ان انفتاح مغربنا على العالم المتقدم – عن طريق لغة او لغتين من هذه اللغات الحية سيساعده – دون ريب على الخروج من معركة التخلف بنجاح للانطلاق بعد ذلك – الى التنمية الاقتصادية والاجتماعية والاشعاع الثقافي والعلمي والتكنولوجي ...

وهو ذوبان وانحلال لشخصيتنا وخصوصياتنا القومية والحضارية اذا استخدمنا اللغة الفرنسية كلغة شبه رسمية واهملنا اللغة العربية .. ان الانفتاح على الثقافة الفرنسية او على أية ثقافة اجنبية اخرى يجب أن يمر عن طريق عروبتنا كما اكد ذلك العالم الاجتماعي الفرنسي جاك بارك (Jacques Berque) في عبارته الشهيرة :

«La francité du Maghreb passe par son arabité»

لذلك طالب المثقفون فى تونس والمغرب الاقصى قبل الاستقلال وبعده بالتعريب والاصالة الثقافية لا لاسباب عاطفية ، وانما لانه المطمح الطبيعي والشعبي ، والسبيل الوحيد الى تحقيق ذاتيتنا ونهضتنا ، والمنطلق السليم نحو وحدة مغربنا العربي كخطوة نحو وحدة وطننا الاكبر ...

الواقع ان موضوع الاصالة والتعريب هو موضوع له حساسية خاصة ويتطلب منا قدرا كبيرا من الموضوعية والشجاعة. قد يحدث التباس فى الاذهان، ونحن نثير الاسئلة والتساؤلات حول قضية الاصالة والتعريب ، قضية الساعة فى مجتمعنا ، هذا الالتباس يتمثل فى أن الغرض من اثارة مشكلة التعريب فى تونس او الجزائر او المغرب الاقصى هو احراج المسؤولين أو التهجم على هذه السياسة التربوية او تلك . لكن الذى حدانا الى معالجة هذه القضية المصيرية هو حرصنا على بناء المغرب الكبير على أسس متينة ، كخطوة مرحلية نحو بناء الوطن العربي .

فالواجب يفرض علينا النقد النزيه والموضوعي لجوانب حياتنا اللغوية والثقافية وغيرها كلما شعرنا بأن هناك خطرا يهدد كياننا . ان اسلوب السكوت والتفاؤل الكاذب هو بمنزلة الخيانة لانه يقضي على امل شعوبنا فى التقدم والتحرر والوحدة .

نحن لا ننكر ان موضوع التعريب والاصالة هو موضوع خطير ، قد حفت به ملابسات سياسية واديولوجية ونفسية لا تخفى على احد . واذا صارحنا انفسنا وضمائرنا : فهو . فى حقيقة الامر قضية مصيرية تتحكم فيها السياسة والاقتصاد ، بحيث تتجاوز امكانيات رجال الفكر والتربية والثقافة فى المغرب العربي . والراي عندنا ان الحل الجذري لمشاكل كثيرة يتخبط فيها مجتمعنا المغربي اليوم ، يكمن فى تبني سياسة التعريب الشامل والمرحلي . فهل لنا ان نعرب ؟ وهل لنا ان نجعل من لغتنا القومية ، لغة المدرسة والادارة والشارع ، والانتاج الفكري والعلمي ...؟

اذ لا يمكن ، اطلاقا عزل المفهوم السياسي لعملية التعريب عن مفهومها الثقافي ، فكلاهما وجهان لعملة واحدة !؟

لذلك ونظرا لتشعب قضية التعريب ، باعتبارها قضية سياسية ومجتمع ، وحضارة ، ولغة ، وشعب ومثقفين ، وهي مطروحة اليوم بثقلها الكامل والملح على الصعيدين الرسمي والقومي ...

لذلك ونظرا لكل هذه الظروف والملابسات الاديولوجية والنفسية التى تحف بالتعريب لا يسعنا الا أن نؤكد الحقائق التاريخية التالية :

اننا لا ننكر ابدا المشاكل والصعوبات النفسية والمادية التى تعرقل سير قطار التعريب ، خاصة ونحن نعلم ان الاوضاع الاستعمارية التى رزحت تحتها بلادنا ، قد فرضت علينا واقعا ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا متخلفا . ان هذه التركة الاستعمارية الثقيلة والبغيضة قد عكست على حياتنا الاجتماعية ارتباطا لغويا وثقافيا خطيرا .

كان هدف الاستعمار فى العصور الحديثة سواء كان فرنسيا او انجليزيا يرمي الى تمزيق وحدة الامة العربية وتقسيم الوطن العربي الى دويلات وكيانات سياسية عديدة ، وذلك لغاية السيطرة على مقومات هذه الامة بجماهيرها الكادحة ، اقتصاديا وثقافيا ولغويا ...

وكان من نتائج هذه السياسة الاستعمارية الادماجية فى المغرب العربي الكبير بخاصة ، هو تجهيل الجماهير بلغتها وتاريخها وواقعها ... ومن هنا كانت وضعية شعوبنا المغربية مطابقة للحقيقة العلمية التى صدع بها ، منذ قرون عديدة العلامة ابن خلدون وهي تؤكد بأن « الامة الغالبة تفرض على الامة المغلوبة حضارتها ولغتها ..» .

لذلك فواقع اللغة العربية يعود تفسيره لظروف تاريخية وحضارية . بدات اثر عصور الانحطاط والظلام ، وبخاصة فى بداية العهد التركي ؛ ثم تطورت الامور عندما حاولت عائلات دخيلة محاربة اللغة العربية وذلك كخطوة نحو تتريك الاقاليم العربية . وكلمة تتريك هي كلمة دارجة حتى اليوم فى بعض اللهجات العربية فى المغرب وتونس وتعني مثلا العبارة : « يحب يتركني » معناه « يريد ان يهلكني » (1) . من هنا ندرك العلاقة المعنوية بين عملية مسخ العرب الى اتراك عثمانيين . وعملية الهلاك والاهلاك .

ان عملية التتريك هذه قد نادى بها — كما نعلم — وحاول تطبيقها دعاة الطورانية من جماعة تركيا الفتاة . اما فى المغرب باقطاره الثلاثة ؛ فقد قامت محاولات شرسة على يد الاستعمار الفرنسي ؛ ترمي فيما ترمي اليه ؛ الى الفرنسة والادماج ، واحلال لغة المستعمر وثقافته محل اللغة العربية وثقافتها .

لذلك اكد المثقفون المغاربة — مرارا وتكرارا — ان لغة المستعمر ؛ بما تحويه من ثقافة وتقاليد لا تتماشى مع متطلبات السيادة الوطنية ولا تنسجم مع مقومات الشعب العربي فى تونس والمغرب الاقصى والجزائر . وانما هي — بالعكس من كل ذلك — تمسخ او بامكانها ان تمسخ — شخصيته وتلهيه عن مشاكله الحقيقية .

---

(1) كلمة « **تركة** » بتشديد الراء معناها فى عامية المغرب الاقصى : سلب او نهب كل ما يملكه ، وكان « **المترك** » (بفتح الراء وتشديدها) مات فصارت **تركته** تحت رحمة السالب . ومن هنا يتضح اشتقاق الكلمة العامية من الفصحى ، كما يتضح من استعمالها فى المغرب الاقصى بالمعنى الذى اشرت اليه .